العرب
السبت 2019/11/02
السنة 42 العدد 11516

لبنان وتساقط «لاءات» الائتلاف الحاكم

سلام السعدي
كاتب فلسطيني سوري

بعد استقالة رئيس الوزراء اللبناني سعد الحريري، جاءت كلمة الرئيس ميشيل عون لتظهر تمكن الاحتجاجات الشعبية من إحداث تصدعات هامة ضمن الطبقة السياسية الحاكمة، تمثلت في سقوط خطوطها الحمراء تباعا. لكن التنازلات المقترحة لم تقنع الشارع المحتج، الذي كف عن الاعتقاد بإمكانية انبثاق التغيير من طبقة سياسية لا وظيفة لها سوى الحفاظ على الوضع القائم.

لقد كابرت هذه الطبقة طيلة الأسابيع الثلاثة الماضية، رافضة مطالب المتظاهرين ومتخوفة من تقديم تنازلات سريعة تشجعهم على مواصلة الأمل بعقد اجتماعي جديد يقطع مع النظام الطائفي القائم منذ العام 1943.

ظهرت المكابرة تلك في أوضح صورها في خطابات زعيم حزب الله، حسن نصرالله، الذي خرج مرتين منذ انطلاق الانتفاضة، ليشد من عضد الائتلاف الطائفي الحاكم والمهتز تحت ضربات الاحتجاجات الشعبية غير المسبوقة في تاريخ لبنان. هدد نصرالله المحتجين، راسما عددا من الخطوط الحمراء، تتمثل في رفض كل من استقالة الحكومة، تشكيل حكومة تكنوقراط، إسقاط العهد، وإقامة انتخابات مبكرة.

سقطت أولى "لاءات" حسن نصرالله باستقالة سعد الحريري، التي حققت أول مطالب الحراك.

كان الحريري رهينة لدى تحالف حزب الله والتيار العوني، إذ تمثل دوره في إنهاء كل ما يعيق وصول ميشيل عون إلى رئاسة الجمهورية. تعمقت هامشية دور سعد الحريري بمرور الوقت حتى بات لا يملك قرار استقالته. لكن الانتفاضة جاءت لتحرر الرجل من خلال شق صفوف الطبقة الحاكمة، التي كانت تعمل على تقسيم الانتفاضة نفسها إلى مربعات طائفية مغلقة يسهل التلاعب بها ومحاصرتها.

ثم جاء خطاب الرئيس اللبناني، ميشيل عون، ليعلن قبوله تشكيل حكومة تكنوقراط داعيا إلى اختيار وزراء الحكومة الجديدة ليس بناء على التحاصص الحزبي والطائفي بل بناء على الكفاءة. وبهذا تكون ثاني لاءات حسن نصرالله قد سقطت أيضا أو على الأقل لم تعد موضع إجماع لدى مكونات الطبقة الحاكمة.

بصورة واضحة، حاول الجنرال إبعاد غضب الشارع عن مركز الرئاسة وكله خشية أن تكون الخطوة التالية في الشارع، بعد إسقاط الحريري، هي المطالبة بإسقاطه شخصيا. كان عليه أن يقدّم تنازلا خاصا بتشكيل الحكومة، إذ يرفض الشارع المحتج تشكيل حكومة سياسية مشابهة للحكومات المتعاقبة والتي لم تكن معنية بإدارة شؤون البلاد الاقتصادية وتقديم الخدمات العامة بقدر انشغالها بالتنافس على نهب الدولة ومقدرات البلاد.

سوف يراقب المحتجون عن قرب آليات تشكيل تلك الحكومة والشخصيات التي سيلقى على عاتقها إخراج البلاد من مأزقها الحالي. لكن الشك لا يزال هو المسيطر على الانتفاضة اللبنانية بسبب إدراكها أن المشكلة لم تكن في الحكومة المستقيلة ووزرائها بل في النظام السياسي الذي وضعهم في مناصبهم في المقام الأول. والحال هذه، لن يكون الحل اليوم هو وضع شخصيات جديدة في قلب منظومة فاسدة ومهترئة وخاضعة، في مفاصلها الرئيسية، لهيمنة التحالف الطائفي الحاكم.

المطلوب إذن ليس تجاوز الحكومة القديمة بل تجاوز الأحزاب والمنظومة القائمة. المطلوب حكومة انتقالية مستندة إلى قوة الشارع وليست إلى قوة الأحزاب من أجل إعادة صياغة النظام السياسي وتقرير مستقبل البلاد. يتطلب ذلك أن تحافظ الانتفاضة على قوتها الشعبية وزخمها باعتبارها حراكا عابرا للطوائف، قام بتوحيد القواعد الشعبية التي ظنتها الأحزاب الطائفية أنها مغلقة وحبيسة مخاوفها من "الآخر" الطائفي بصرف النظر عن تطورات الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

> حاول الجنرال عون إبعاد غضب الشارع عن مركز الرئاسة خشية أن تكون الخطوة التالية بعد إسقاط الحريري، هي المطالبة بإسقاطه شخصيا

جذبت الانتفاضة مئات الآلاف من اللبنانيين وغيرت رأي ومشاعر ملايين آخرين وذلك تحت عناوين جذرية تتعلق بإسقاط السلطة. هذا هو مصدر قوتها الذي، في حال حافظت عليه، سيكون بإمكانها فرض حكومة بصلاحيات وقدرات استثنائية تفتح طريق التغيير في لبنان.

هل تنجح قوة الشارع في فرض ذلك؟ هذا سؤال آخر يعتمد على مدى نضوج تطلعات الشارع اللبناني بعقد اجتماعي جديد وعلى إمكانيات القوى السياسية والمدنية المنظمة للحراك في مواصلة التعبئة الشعبية من جهة، وتنفيس البالونات الطائفية التي تقذفها باستمرار سلطات الأمر الواقع، وبشكل خاص حزب الله وحركة أمل والتيار الوطني الحر، من جهة أخرى. وإذ يتعرض المتظاهرون للضغوط والهجمات المتتالية من الأطراف المذكورة باعتبارها المتضرر الأول من كل تغيير سياسي يجري في لبنان مهما تدنت مستوياته، يحاول ذلك الفريق تشويش صورة الانتفاضة الشعبية التي أحدثت انقساما أفقيا أخفى الانقسامات العمودية الطائفية، التي كانت تفتت المجتمع السياسي اللبناني والدولة على السواء. ويحاول حزب الله إعادة تلك الخطوط العمودية من خلال إظهار الانتفاضة على أنها موجهة ضد الحزب وجمهوره.

في حال لم ينجح الشارع في فرض التغيير الجذري الذي يحتاجه لبنان، لن يكون هنالك حل لأزمات المجتمع اللبناني؛ فأي مخرج مؤقت للأزمة، لن يفعل شيئا سوى فتح الباب لأزمة جديدة، ينزل فيها الناس إلى الشارع في جولة جديدة لتحقيق مطالبهم.

داعش وأمثاله بعد مصرع البغدادي

د. خطار أبودياب
أستاذ العلوم السياسية، المركز الدولي للجيوبوليتيك-باريس

تمثل تصفية زعيم أو متزعم تنظيم أبي بكر البغدادي، ضربة قاصمة لجماعة إرهابية عابرة للحدود عاثت في الأرض قتلا وتوحشا وفسادا. وتشبه هذه الضربة عملية اغتيال أسامة بن لادن التي تأخرت أكثر، لكنها لم تصب تنظيم القاعدة بمقتل، واستمر أيمن الظواهري على رأسه مع تحريك شبكته حول العالم.

تزامنا مع الهجوم التركي شمال سوريا والتخبط الذي أثاره القرار الأميركي بالانسحاب من سوريا، هلل دونالد ترامب لمكسب ملموس في سياسته الخارجية ولأحد أبرز الإنجازات على صعيد مكافحة الإرهاب، بعد سنتين على سقوط الموصل والرقة عاصمتي "الخلافة المزعومة".

لكن هذا الحدث لا يعني نهاية التنظيم وامتداداته وفكره الظلامي المنحرف باسم الدين والخارج عن كل المعايير والقيم الإنسانية، من أجل كسب الرهان على مدى طويل، لابد من مراجعة مناهج واستراتيجيات الحرب على كل أنواع الإرهاب ومصادره وعدم حصره بمنطقة أو خلطه بدين، مع التنبه للمعركة الفكرية وللجذور والأزمات المزمنة وبناء الدول العادلة والتنمية فيها.

يتوافق الخبراء والمتابعون لشؤون تنظيمات الإرهاب على أنه مع وجود البغدادي أو عدمه، تظل الشبكة الجهادية نشطة من إندونيسيا إلى نيجيريا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط، ولاتزال لديها القدرة على تنظيم هجمات في جميع أنحاء الغرب.

لا شك أن القضاء على أبي بكر البغدادي، الذي توهم صيف 2014 أنه يعيد التاريخ إلى الوراء انطلاقا من الموصل، يمثل النهاية الثانية لتنظيم داعش. لكن ينبغي عدم الصراخ بالنصر، ليس فقط بسبب وجود نحو 20 ألف من عناصر التنظيم المنتشرين والهاربين والمطاردين بين سوريا والعراق، إضافة إلى مقاتليه في باقي "الولايات"، بل أيضا بسبب تسرب ونفاد وتمركز أيديولوجية داعش في رؤوس الآلاف من المتعاطفين معه حول العالم، الذين يمجدون من يعتبرونه شهيدهم.

ويخشى العديد من المراقبين أن يتحول البغدادي، بنظر البعض، إلى أسطورة لدوره في "إحياء" الجهاد وجذب الآلاف من الشباب الذين غادروا بلدانهم للانضمام إلى "الخلافة"، لأن إبراهيم البدري السامرائي (أبوبكر البغدادي) تمكن بطريقة ما من إعادة الخلافة، التي اختفت منذ نهاية الإمبراطورية العثمانية عام 1923.

لقد تم القضاء على البغدادي والمتحدث باسم التنظيم "أبي الحسن المهاجر" وتصفية الكثيرين من قيادات التنظيم وفق خطة من التحالف الدولي، للتخلص من كل الرموز القادرة على الاستمرارية، وتحريك جماعات تدين بالولاء لداعش، وموجودة محليا في أربعين دولة.

مثلما تضاءل وتهاوى نفوذ القاعدة منذ هزيمتها في أفغانستان وتصفية بن لادن، من المتوقع أن يشهد تنظيم داعش مصيرا مماثلا لناحية تشتته وتشرذمه بعد نهاية سيطرته على الأرض، وبعد مقتل الكثير من كوادره وتحول مغامرته إلى تغول وجنون دموي في قتل المسلمين، الذين تم تكفيرهم وتشريع قتلهم، والقتل الجماعي للإيزيديين وحرق الأسرى في الأقفاص وذبح الضحايا وقطع الرؤوس بوحشية لا سابق لها.

إنه الحصاد الأسود لتنظيم نشأ عمليا من رحم فكر إقصائي وتوتاليتاري، ومن تتمات الدخول الأميركي إلى العراق، وانهيار الدول من العراق إلى سوريا.

يصر البعض على نظرية المؤامرة في تكوين داعش وفي نهاية زعيمه، لكن مما لا شك فيه أن التنظيم كيان قائم بذاته، ربما استفاد من ظروف وتقاطعات وتلاعب أو من تمويل صناعة الإرهاب.

وفي هذا الصدد، مثلما نشأ تنظيم القاعدة كتتمة لقطيعة بين الجهاديين وواشنطن بعد "الجهاد الأفغاني"، نشأ تنظيم داعش بعد الانسحاب الأميركي من العراق ووقف تمويل الصحوات العشائرية هناك.

وحسب أكثر من شاهد ومتابع داخل العراق وسوريا، يتبين أن الأنظمة المدافعة عن الوضع القائم، وخاصة في دمشق، حاولت من خلال نشأة تنظيمي النصرة وداعش، تبرير استمرارها تحت عنوان الحاجة إليها لمكافحة الإرهاب، وكل ذلك كان مبررا لتدخلات أجنبية وتحالفات دولية تحت هذا الستار.

لا يمكن للمراقب الحيادي عدم التنبه لمسار البغدادي، الذي خرج من سجن أميركي بجوار البصرة في عام 2006 قبل تدرجه في سلك الإرهاب. ولا يمكن عدم ملاحظة مدى استفادة طهران من نشأة داعش لتبرير توسيع دائرة نفوذها تحت غطاء الحرب على الإرهاب.

وهذا بالطبع لا يعني تجاهل الكثير من الأدوار الأخرى، خاصة الممر التركي وسهولة مغادرة المقاتلين الأجانب لبلادهم ووصولهم إلى سوريا. والمريب في التطورات الأخيرة، اكتشاف مخبأ البغدادي في باريشا (شمال غرب سوريا)، في محافظة إدلب بالقرب من الحدود التركية.

وهنا ينبغي التساؤل كيف تمكن البغدادي من اختراق المناطق التي يسيطر عليها النظام السوري ورعاته والمناطق التي بعهدة قوات سوريا الديمقراطية ليصل إلى معقل تنظيمات "حراس الدين" و"النصرة" في منطقة تخضع للنفوذ التركي؟ ربما أراد البعض من وجوده هناك مبررا للهجوم على إدلب وإنهاء المعركة هناك، وربما كان مخبؤه مؤقتا بانتظار نقله للعب أدوار مشبوهة أخرى.

وحسب مصادر أوروبية، فإنه رغم تعميم ترامب شكره على عدة أطراف، كان الدور الأساسي لوحدات الحماية الكردية في إسناد القوات الخاصة الأميركية لوجستيا واستخباراتيا. كما قام جهاز المخابرات العراقية بدور مهم من خلال تأكيد المعلومات وتقاطعها.

لكن مصدرا كرديا سوريا يقول إن "هذا النصر له طعم المرارة بعد توافقات أنقرة مع واشنطن وموسكو على حساب الأكراد"، مشيرا إلى أن قوات سوريا الديمقراطية ووحدات الحماية الكردية، ضحت بحوالي عشرة آلاف شخص في مواجهة داعش.

في عام 2006 سقط أبومصعب الزرقاوي أحد أقطاب الرعب، والآن سقط خلفه أبوبكر البغدادي، الذي قلده وذهب أبعد في ممارساته وكانت نهايتهما متشابهة. لكن اللافت أن نهاية الزرقاوي تزامنت مع بدء خروج العراق من مواجهات أهلية دامية على وقع مقاومة الوجود الأميركي، بينما تتزامن عملية قتل البغدادي مع تحريك خرائط النفوذ في الشمال السوري.

هكذا انتهت ورقة البغدادي وأعلن مجلس شورى التنظيم مبايعة أبي إبراهيم الهاشمي القرشي زعيما جديدا للتنظيم. والأرجح أن هذا الاسم حركي ويعود إلى عمر قرداش المكنى "أبوعمر التركماني"، وهو عراقي شغل منصب مسؤول ديوان الأمن في تنظيم مولع بالبيروقراطية، عكس تنظيم القاعدة، ولذلك من شبه المؤكد أن داعش يمتلك سلسلة خلافة واضحة مجهزة تحسبا لموت الزعيم. ومن المحتمل، أن يكون إنجاز عملية الخلافة بهذه السرعة نذير شر بعمليات انتقام وإعادة انتشار.

من وجهة نظر ضحايا داعش من المشرق وحول العالم، ساد الابتهاج والارتياح بعد القضاء على البغدادي، لكن المعركة ضد الإرهاب تتطلب النفس الطويل.

> ينبغي التساؤل كيف تمكن البغدادي من اختراق مناطق نفوذ النظام السوري وقوات سوريا الديمقراطية ليصل إلى منطقة تخضع للنفوذ التركي؟

غياب الاستقرار المستمر في العراق وسوريا وتشتت الانتباه وعدم السيطرة على مساحات بالغة الاتساع، خاصة في المناطق الصحراوية، في وقت لا يملك فيه النظام السوري الموارد أو القدرات اللازمة للتصدي لداعش بصورة حقيقية، يمكن أن يتيح له إعادة التنظيم. والأخطر يتمثل في عدم كسب معركة الأفكار العالمية ضد دعاية داعش والقاعدة. وما يثير كل القلق اتخاذ "الجهاد" صبغات وألوان محلية من أفريقيا إلى آسيا.

لا يمثل مصرع البغدادي إلا محطة في مواجهة آفة الإرهاب، والمطلوب، أكثر من أي وقت مضى، عدم استخدام الإرهاب وسيلة لتشويه الإسلام وتمزيق العالم العربي. والأهم من ذلك مراجعة الاستراتيجيات والمقاربات لتكون أكثر فعالية وشمولا مع استيعاب موجبات المواجهات غير المتكافئة واستهداف وعزل رعاة صناعة وتحريك الإرهاب.